باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف والمباحث فيهم وتشحيذاً للاذهان. ولكن الصعوبة فيما يخرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ويراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف الغلاط غيره عظيما كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تؤثر على المطولة

نظرة مؤرخ مصري في

كتاب « الامبراطورية المصرية »

في عهد محمد علي

للاستاذ محمد رفعت

من المؤلفين من يكتسب العلم والمعرفة بالدرس والمرانة والخبرة ومنهم من تدفعهُ الرغبة الى طرق ابواب العلم والمعرفة ثم لا تلبث هذه الرغبة اذا استمرت ان تصل بصاحبها الى الحقيقة العلمية . والاستاذ مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده من النوع الثاني قد دفعتهُ الرغبة في تعرف تاريخ الحركة الوطنية المصرية الحديثة الى البحث والتنقيب في مختلف الكتب والمصادر والسجلات حتى استطاع ان يصدر هذا المؤلف النفيس . وانك لتجد اثر هذا الطابع الاجتهادي ظاهراً في اسلوب الكاتب وفي طريقته وفي كيفية عرضه وتلخيصه للحقائق التي يوردها في الكتاب . بل انك لتستطيع ان تحكم على الكتاب من الوجهة العلمية بنظرة بسيطة تلقيها على العنوان . اذ ان مصر رغم قوتها وفتوحاتها في عهد محمد علي الاكبر لم تكن حكومة مستقلة بالمعنى الدولي الذي يفهم من هذه الكلمة وهي بالاولى لم تكن حكومة امبراطورية فلو ان المؤلف اختار لكتابه عنوان « فتوح مصر في عهد محمد علي » او لو انهُ نسب الامبراطورية الى محمد علي بدلاً من نسبتها الى مصر لكان عنوانهُ الى الصواب اقرب وعلى الحقيقة العلمية ادل وابلغ

اما الاسلوب فهو في الغالب اسلوب السياسي الصحفي الذي يكتب وامامهُ غرض واحد

(١) المقتطف — اشرنا الى هذا الكتاب فيما صدر في السنة الماضية فعهد الى صديقنا الدكتور محمد رفعت المؤرخ المصري في مسألة النظر فيه فأتحفنا بهذه المقالة في اواخر السنة الماضية فتخلفت بين اوراقنا . فنتقدم الى كاتبها وال القراء بالمعذرة عن تأخيرها

يجمع من اجله الحقائق الصالحة لخدمة هذا الغرض . وفي التاريخ ما اكثر تناقض الحقائق المجردة واختلافها . ومامهمة المؤرخ الخبير سوى تمحيص هذه الحقائق واستخراج وحدة عامة منها تربط نواحي الموضوع المختلفة وتجعل اجزاء الكتاب كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضهُ بعضاً . اما المجتهد او « الهاوي » فتى تجمعت لديه الحقائق اوردها في كتابه وليس بينها سوى أوهى الصلات والروابط

وفي كتاب الدكتور صبري يمكنك ان تقلب صفحات كيف شئت وتقرأ فلا تجد ضرورة لاستقصاء اية مسألة او تحقيق اية وجهة نظر ذلك لان الكتاب خال من الوحدة فترى مسائله مفككة وحقائقهُ مبعثرة فهنا تقرير قدمهُ احد القناصل في مسألة معينة وهنا مذكرة او خطاب طويل من سفير او وزير وهنا كلام منقول بنصهِ من مؤلف قديم قد يستغرق ايراده الصفحات تلو الصفحات . خذ مثلاً لذلك تقرير القنصل الانجليزي فارن Farren في سوريا (ص ٢٩١ — ٢٩٦) وتقرير بروكش فن استن Proksch Osten النمسوي (ص ١٢٠ — ١٢٨) وكلام الرحالة بلجراف Palgrave عن العرب . حتى في التلخيص النهائي لم يجد المؤلف مانعاً من سرد تقرير القنصل الانجليزي Stoddart (ص ٥٧٣) وبالغ في اهميته حتى انهُ ليقول « ان مسيو ستُدارت قد وَضع القناع في بيانه العظيم عن المشروع الانجليزي الذي كان يقضي بتكوين امبراطورية افريقية آسيوية على انقاض محمد علي » (ص ٥٨٠) مع ان المؤلف لا بد ان يكون قد عرف بنفسه ان امثال هذه التقارير التي يبعث بها القناصل الى حكوماتهم لا حصر لها في محفوظات الحكومات ومعظم ما فيها من الآراء السياسية اقوال لا تفيد الحكومات التي يمثلها القناصل. خذ مثلاً رأي السفير الانجليزي في القسطنطينية في اثناء ازمة ١٨٣٩ — ١٨٤١ وهو اللورد پنسنبي Ponsonby . لقد كان من رأيهِ ان يصدر السلطان فرماناً بعزل محمد علي بمجرد ان اظهر الباشا اعتراضهُ على نصوص معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ لما عرضها عليهِ الباب العالي وفعلاً استطاع پنسنبي بنفوذه على رجال الباب العالي وبتأثيره في زملائه ممثلي الدول أن يصدر السلطان قرار العزل ولكن انجلترا وباقي دول الاتفاق لم توافق على هذا القرار ونصحت لممثليها بضرورة حضّ السلطان على النزول عن فرمانه . من ذلك يتبين خطورة الاخذ بآراء السفراء او القناصل عند تحديد سياسة الدولة التي يمثلها السفير او القنصل

على ان الكتاب يمتاز حقيقة بغزارة مادته وكثرة ما فيهِ من مختلف الرسائل والتقارير والاقتباسات وبه ترجمة بعض المستندات التركية التي عثر عليها المؤلف في اثناء بحثهِ في الدفترخانة بالقلعة واكثرها خطابات تبودلت بين محمد علي وابراهيم في اثناء حروب الشام.

وبفضل هذه المستندات استطاع المؤلف ان يصوّر ويوازن بين آراء الوالد ذلك الشيخ الصلب والسياسي الحذر والابن العسكري المقدام الصريح في خططه وافعاله . خذ مثلاً قول ابراهيم في احدى رسائله مخاطباً والده : لا بد انك تذكرين وقفتي بجنودي في كرتاصية وكتبت اطلب اليك بالحاح وفي خضوع وتواضع ان تنتهز الفرصة وتعلن استقلالنا فكتبت اليّ تقول انك قانع ان تكون « محمد علي » وكفى مع اننا كنا منتصرين وكانت الفرصة سانحة . ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال !! . . . . الاّ ان الاستقلال يؤخذ ولا يطلب ! » (٧ محرم سنة ١٢٣٩) وكم كنا نود ان يعم الانتفاع بهذه الوثائق والمستندات فيقصر المؤلف عمله اولاً على جمع نصوص المستندات التي ننقب عنها في مختلف السجلات واثباتها دون اي بتر او اختصار لتكون مصدراً نقياً لتاريخ مصر. اما النقط التي اخذتها على المؤلف فبعضها خاص بالطريقة وبعضها خاص بالاخطاء التاريخية وقد اوردنا نقدنا في الحالتين على سبيل المثال لا الحصر

١ — قد اظهر المؤلف في اثناء تعرضه لتحليل خطة انجلترا نحو مصر او محمد علي شدة لاذعة في نقده لا يمكن تصويبها البتة في كتاب علمي . فقد ادت به المبالغة الى ان يشبه العداء بين انجلترا ومصر بالكفاح بين روما وقرطاجنة في التاريخ القديم وكما ان روما لم يهدأ لها بال او يتم لها سؤدد الاّ بعد ان محت قرطاجنة كذلك ينسب المؤلف الى انجلترا رغبتها في تدمير قوة محمد علي الناشئة (ص ٤٨١ — ٥٥٧) من ذلك قوله صفحة ٥٧٠

"L'Egypte, toutes ses dépendances, toutes ses libeertés et toutes ses sources devaient devenir le monople de la Grande Bretagne"

٢ — ومن امثلة هذه المبالغة قوله ان انجلترا لم تكن ترمي بسياستها الى اضافة مصر لتابعيها فحسب بل كانت تريد وضع يدها على «الامبراطورية المصرية» لتصلها بأمبراطوريتها بالهند مع ان الهند في ذلك الوقت لم يكن قد تمّ ضمها الى التاج البريطاني والامبراطورية البريطانية على الهند لم تعلن الاّ ١٨٧٦. على ان المؤرخين الحديثين يقررون جميعاً ان غرض انكلترا في ذلك الوقت لم يكن امتلاك مصر بل كان محصوراً في صيانة علاقاتها ومواصلاتها مع مستعمراتها في الشرق وان تحول دون قيام اية دولة معادية لها في مصر حتى لا تتعرض مصالحها في الشرق للخطر . اما فكرة الاحتلال فقد جاءت في آخر عهد الخديوي اسماعيل

٣ — ثم انظر الى وصفه بالمرستون وبنسني بأنهما deux hommes espeit intelligents (ص ٤٤٢) اي انهما رجلان قليلا الذكاء . مع ان بالمرستون كان المحرّك الاول لدولاب السياسة الدولية في ذلك العهد كما كان بنسني اقوى ممثلي الدول في القسطنطينية ولا يمكن

ان يوصف رجال هذه مقدرتهم بأنهم قليلو الذكاء

٤ — كذلك نسب المؤلف الى انكلترا انها كانت ترمي من وراء معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ مع روسيا وفرنسا الى تكوين حلف bloc زعامتها يستعاض به عن الحلف المقدس (ص١٠٧) مع ان انكلترا كانت في ذلك الوقت تحارب فكرة المؤتمرات والاحلاف وتعارض في تداخل الدول الكبرى في شؤون الامم الصغرى . وكانت بطبيعتها تنفر من اي اتفاق دائم مع روسيا ذات الحكومة المطلقة وانها لم ترغبها على عقد معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ سوى رغبتها في منع تدخل روسيا بمفردها في المسألة الاغريقية . فلا معنى اذن للقول بأن غرض انكلترا في سنة ١٨٢٧ تكوين bloc مع الروسيا وفرنسا يقوم مقام المحالفة المقدسة

٥ — اما حيرة المؤلف في تحديد سياسة فرنسا في اثناء الثورة الاغريقية وقوله «ان فرنسه كانت تعطف على الجانبين الاغريقي والتركي المصري او انها على الاقل قد انتهجت خطة محايدة متريثة» (ص١٠٨) فلا مسوغ لها قط. لان فرنسا وعلى رأسها حكومة شارل العاشر الرجعية لم تتوان في اظهار عطفها على الثوار فأرسلت المتطوعين امثال Fabvier ليحاربوا في صفوف الثوار المسيحيين ضد تركيا . ولما عقدت معاهدة لندن لم تتردد فرنسا في ارسال امير البحر de Rigny للاشتراك مع امير البحر الانكليزي في مراقبة الحالة ثم لم تلبث ان ارسلت قوة حربية كبيرة بقيادة الماريشال ميزون Maison لتضطر ابراهيم الى الجلاء. فهذه الخطة الحاسمة من جانب الحكومة الفرنسية لا تتفق مع قول المؤلف ان فرنسا كانت تعطف على الجانبين. والحقيقة ان اوربا جميعها حكومات وشعوباً كانت تعطف على الاغريق ضد تركيا . ولم يشذ سوى مترنخ . فقد كان عدو الثورة سواء اكانت ضد السلطان ام ضد امبراطور النمسا

٦ — اما عن مذكرة المندوب النمسوي الكولونيل بروكش ڤن اوستن Prokesc Osten الى محمد علي بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٨٣٣ وهي التي رسم فيها خطة تكوين خلافة عربية يكون محمد على رأسها فقد ذكر المؤلف انه عثر عليها في السجلات الانكليزية (ص٢٧٢) مع ان كاتب هذا المقال قد نشر ملخص هذه المذكرة في كتابه «تاريخ مصر السياسي في عهد محمد علي». وقد نشر المذكرة وعلق عليها في رسالة قدمها للمؤتمر الجغرافي الدولي المنعقد بالقاهرة في شتاء سنة ١٩٢٥

٧ — ومن اعجب ما لحظناه في الكتاب نسبة السذاجة الى محمد علي عند ما كانت تضطره الظروف السياسية الى الافصاح عن مراميه واغراضه الى احد قناصل الدول الكبرى وخاصة انكلترا. فيظن المؤلف أن القنصل استطاع بمهارته ان يستدرج محمد علي

ولنا ان المجاملات السياسية كانت تقضي على محمد علي بضرورة اعلام الدول بما ينوي عليه او على الاقل بجس نبضها حتى لا تعترض على تصرفاته في المستقبل. وعلى ذلك تكون ملاحظات المؤلف على محمد علي اثناء حديثه مع قنصل انكلترا بخصوص الهند (ص٢٨٨) او بخصوص السودان (ص٦٦) هي ملاحظات خاطئة فلا انقاصل « تحكموا » على محمد علي ولا محمد علي خانه لسانه

٨ — ومن اقواله ان عباس باشا خلف اخاه ابراهيم في حياة والده وكرر هذا القول في مكان آخر (ص٥٨٩ و٥٩٠) وقاله ان عباس الاول هو ابن طوسون بن محمد علي فعباس حفيد محمد علي وابن اخي ابراهيم

٩ — وذكر في (ص٥٥١) ان ابراهيم في اثناء زيارته لاوربا سنة ١٨٤٥ نزل في ميناء ليهورن Leghorn في ايطاليا وانا نستغرب ايراده الاسم بهذا الشكل لا سيما وان المؤلف يكتب باللغة الفرنسية اذ ان اسم الميناء بالفرنسية Livourne ولا تعرف بليجهورن الا في الانكليزية

١٠ — وذكر في (ص٥٥٨) ان كاتب رجل المورة كان بالقسطنطينية سنة ١٨٤٨ مع انهُ توفي سنة ١٨٢٧ والذي كان بالقسطنطينية اللورد استراتفورد قريب كاتب ولكنهُ ليس رجل المورة

١١ — ومما يؤخذ على المؤلف مبالغته في وصف حالة جيش ابراهيم باشا في سورية لما هاجمه الحلفاء من السواحل والجليون من الداخل سنة ١٨٤٠ فقد ذكر ان الجيش كان Presque une affamée et démoralisée (ص ٥١٨) اي ان رجاله كانوا عرياً جياعاً وفاقدين الروح المعنوية

ومع ان حالة الجيش كانت حقيقية مما يؤسف لها الا ان جميع المصادر مجمعة كما اعترف المؤلف على ان قوات ابراهيم كانت كافية وفي امكانها المقاومة وقد ذكر نابيير Napier قائد قوات الحلفاء في كتابه « الحرب في سوريا » ان المصريين كانوا متفوقين في داخلية البلاد وانهُ كتب الى بلنسي يقول انهُ اذا استمرت الحرب مدة فلامناص من ان يقوى حزب ابراهيم في سوريا (الجزء الاول ص ٢٥٣) واما ما اصاب الجيش من الخسائر الفادحة فكان نتيجة اجتياز الجيوش لبلاد سيطر الحلفاء على سواحلها فمنعوا عن الجيش الراحل المؤونة والزاد وحرموا عليه الاتصال ببلاده الا بطريق الصحراء الوعر

١٢ — ويجب ان نشير هنا الى ان بالمرستون لم يكن وكيلاً للخارجية كما ذكر المؤلف في ص٥١٣ بل كان وزيراً والانكليز يطلقون على بعض وزرائهم لقب Secretary of State

هذه هنات غير خطيرة يمكن تداركها ولا تستطيع بحال ان تؤثر في قيمة الكتاب كمصدر جامع لآراء ومستندات وحقائق سياسية او دبلوماسية منها جانب كبير لم يرَ النور الا بفضل الجهود والمباحث التي قام بها ولا يزال يقوم بها صديقنا الدكتور صبري في مصر وفي الخارج